ومــن أخطأ فليتب، ولا يتمادى فــى الهلكة، فإن من تمادى فى الجــور كان أبعد من الطريق... فأنا أول من اتعظ. أســتغفر الله مما فعلت وأتوب إليه. فإذا نزلت من منبرى فليأتنى أشــرافكم فليرونى رأيهم. فوالله لئن ردنى الحق عبدًا لأذلن ذل العبيد».

ففى هذا كله دليل واضح على أن حق الأمة فى مراقبة الحاكم ومحاسبته على أعماله كان حينئذ أمراً مقرراً فى الإسلام ومفروغًا منه، وأن المسلمين كانوا شديدى الحرص على التمسك به، وأن الخلفاء الراشدين أنفســهم لم يعترفوا به ويذعنوا فحسب، بل كانوا كذلك يغتبطون كل الاغتباط بممارســة الأمة له، حتى لو انتهت هذه الممارسة إلى حد الغلو والإفراط.

٤

مبدأ الشورى فى شئون السياسة والرجوع إلى الأمة فى الأمور الهامة

يحث الإســلام على الشورى فى مهام الأمور على الإطلاق، وفى قمتها، من غير شــك، مهام الأمور فى شــئون السياســة والحكم، وينهى عن الاســتبداد فيها بالرأى، فيأمر الله تعالى

نبيه – مع أنه معصوم من الزلل ولا يسير إلا على هدى من ربه – بأن يشاور أصحابه فى الأمر، فيقول: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾[1]. ويبيّن القرآن الكريم أسمى صفات المؤمنين الصادقين فيذكر من بينها أن أمورهم شورى بينهم، فيقول: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[2].

وقد حرص الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أن يسموا السورة كلها التى وردت فيها هذه الجلمة الأخيرة «سورة الشورى» لأهمية هذا المبدأ فى الإسلام.

وقد أخذ الخلفاء الراشدون بمبدأ الشورى فى شئون الحكم، وخاصة فى الخطير منها. وفى التاريخ الإسلامى مئات من الأمثلة الدالة على حرصهم على العمل بهذا المبدأ القويم.

غير أنه يلاحظ فى هذا الصدد أمران:

---

(١) آية ١٥٩ من سورة آل عمران.

(٢) آيات ٣٦ – ٣٨ من سورة الشورى.

أحدهما: أنه لم تكن هناك للشورى مجالس خاصة مؤلفة عن طريق الانتخاب أو التعيين كما هو الشأن فى مجالس الشورى والمجالس النيابية وما إليها فى الأمم الحديثة؛ وإنما كان الخلفاء حينما يرون مقتضيًا للاستشارة يستشيرون أحيانًا من يثقون به ويطمئنون إلى رأيه وعلمه وتجاربه وكفايته؛ ويعلنون أحيانًا أخرى عن اجتماع عام فى المسجد أو فى مكان ما، فيفد إليه عدد كبير من المسلمين، فيعرضون عليهم ما يودون الاستنارة بما يراه المجتمعون بشأنه.

وثانيهما: أن الخليفة كان إذا اقتنع برأى عمل به ولو كان مخالفًا لرأى من استشارهم؛ لأن الخليفة هو نفسه مجتهد، وله الحق فى أن يستنبط الأحكام الشرعية من مصادرها، ويطبقها على ما يجدُّ من القضايا. والمجتهد يجب عليه أن يعمل بما يهديه إليه اجتهاده ولا يجوز له أن يقلد غيره فى الرأى. والخليفة من جهة أخرى مسئول أمام الأمة عن نتائج أعماله كما سبق بيان ذلك. ولا يتفق مع العدالة ولا مع المنطق فى شىء أن يلزم الخليفة بالعمل برأى مخالف لرأيه ثم يحاسب على نتائج هذا العمل.

ومن ثم حفظ لنا التاريخ حوادث كثيرة عمل فيها الخلفاء الراشدون برأيهم مع مخالفته لرأى الآخرين، وتحملوا تبعة أعمالهم. وأظهر مثال لذلك تصرف أبى بكر الصديق d فى الحروب التى اشتهرت فى التاريخ باسم حروب الردة. وهى الحروب التى أعلنها الصديق عقب وفاة الرسول ﷺ على عدة قبائل من العرب ارتد بعضها عن دينه، وامتنع كثير منها عن أداء الزكاة مع بقائه على عقيدة الإسلام، فقد كان رأى الصحابة أنه لا طاقة للمسلمين بمحاربة هذه القبائل، وأنه لا تجوز محاربة من امتنع عن أداء الزكاة مع بقائه على عقيدة الإسلام، محتجين بقوله عليه السلام: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ فإن قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق». ولكن الصديق d رأى أنه من الواجب محاربتهم جميعًا حتى يرد للإسلام هيبته، ويحفظ قدسية شعائره وأركانه، ولا يفتح ثغرة للاستهانة بتعاليمه. وقال فى شأن من امتنعوا عن أداء الزكاة: «والله لو منعونى عناقا» (وهو الصغير من ولد المعز) وفى رواية «عقال بعير» (وذلك أنه كان يجب على دافع زكاة الأنعام أن يقدم إلى جامع الزكاة عقال ما يدفعه إليه من أنعام حتى لا يتحمل بيت

المال ثمن هذا العقال) «كانوا يعطونه رسول الله ﷺ لحاربتهم عليه ولو وحدى ما استمسك السيف بيدى. لقد كمل الدين وتم الوحى (يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (١)، أوَ ينتقص وأنا حى؟!». وقضى بذلك على فتنة كانت تتهدد الإسلام ونظمه والمجتمع الإسلامى بشر مستطير.

وقد وصف عمر d هذا الحادث فقال: «إنى سأخبركم عنى وعن أبى بكر (أى سأبين لكم مقامى من مقام أبى بكر): إنه لما توفى رسول الله ﷺ ارتدت العرب ومنعت شاتها وبعيرها (أى عن دفع زكاة الأنعام). فاجتمع رأينا كلنا، أصحاب محمد ﷺ، أن قلنا له: يا خليفة رسول الله إن رسول الله كان يقاتل العرب بالوحى والملائكة يمده الله بهم. وقد انقطع ذلك اليوم. فالزم بيتك ومسجدك فإنه لا طاقة لك بقتال العرب. فقال أبو بكر: أوَكلكم رأيه على هذا؟ فقلنا: نعم. فقال: والله لأن أخِرَّ من السماء فتخطفنى الطير أحب إلى من أن يكون رأيى هذا. ثم صعد المنبر فحمد الله وكبّر وصلى على نبيه ﷺ، ثم

(١) آية ٣ من سورة المائدة.

أقبــل على الناس فقال: «أيها الناس! من كان يعبد محمدًا فإن محمــدًا قد مات. ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت. أيها النــاس أئن كثر أعداؤكم وقل عددكم ركب الشــيطان منكم هذا المركــب؟! والله ليظهرن الله هذا الديــن على الأديان كلها ولو كره المشركون. قوله الحق ووعده الصــدق. ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾[1].

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيــلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[2]، والله أيهــا الناس لــو منعونى عقالا لجاهدتهم عليه واستعنت عليهم بالله وهو خير معين».

والحمد لله الذى هدانــا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

■■■

(١) آية ١٨ من سورة الأنبياء.

(٢) آخر آية ٢٤٩ من سورة البقرة.